

حرية الفكر

واثرها في تكوين الحضارة الانسانية

على أساس الدين (١)



يخيل الى كثير من الباحثين أن حرية الفكر قالب جديد صب فيه الفكر بعد أن تخلص من قيود اللاهوت التي ظلت مؤثرة في كل ماحاول الفكر أن يبرز من آثار في العصور الوسطى وحدود العصر الحديث ، ويخيل اليهم أيضا أن أحرار الفكر لم يوجدوا في عصر من العصور ، ألهم إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهذه العقود الثلاثة التي فرطت من القرن العشرين . على أن غالب ما يكون الحق مع الذين يذهبون عكس هذا المذهب ويؤيدون فكرة أن حرية الفكر وجدت في كل الازمان وأنها قالب صب فيه الفكر مرات عديدة خلال التاريخ البشرى .

ولست حرية الفكر قاصرة على استكشاف الفكرات الجديدة في العلم أو الفلسفة أو الادب بل هي طابع الاديان في كل العصور والتكاثر التي استند اليها كل المصلحين في كل بقاع الارض وخلال كل دور من دورات الحضارة . غير أنه بين حرية الفكر في الازمان القديمة والحديثة فارق واحد . هو أن هذه الحرية في العصور الاولى تتمتع بها فرد واحد تبعته الجماهير ، أما في العصر الحديث فاصبحت الحرية الفردية طابع الاكثرية من المتعلمين . فانقلبت الصورة مع ثبات في الجوهر . فالشخصية الفردية في الحضارات القديمة قد تبدلت في الحضارات الجديدة بلقيف من الاحرار يرفعون علم التقدم أمام الجماهير يتبعهم اتباعا أعمى . بعد أن كانت تتبع فردا واحدا تباعا أشد عناية في العصور الاولى

١ خذ مثلا على ذلك الحوادث الكبرى التي يرويها التاريخ في نشأة الحضارة . فاني اعتقد أن خروج خليل الله ابراهيم من أور الكلدان حادث من أكبر الحوادث التي وقعت في تاريخ الانسانية . على أن خروجه من تلك البلاد ومهاجرته مع أهله غرباً

(١) مقال لمحرر العصور نشر بالعدد الممتاز من مجلة الحديث التي تصدر في حلب

وهي من المجلات الممتازة بنزعتها الى التجديد وبحررها الاستاذ سامي الكيالي

الى أرض كنعان أن كان حادثاً بسيطاً في حد ذاته فانك اذا بحثت في سببه الحقيقي رأيت كيف يدل التاريخ على أهمية الحوادث البسيطة . وليس لخروج ابراهيم عندي من معنى إلا الصراع بين فكرة التوحيد وفكرة التكثير . فانك اذا قرأت تاريخ خليل الله منذ نزوحه من « أور » الى موته لا تجد في ذلك أثراً من فكرة « بعيل » ولا « عشتار » ولا أرض « حارس » البابلية . بل تجد فكرة في التوحيد ثبتت أصولها في صميم الفكر الانساني منذ ذلك الحين الى الآن من غير أن يتأثرها تغير أو يعتريها انشعاب . اللهم إلا في الصور العديدة التي أخرجها أهل الكلام في اليهودية والنصرانية والاسلام

والسبب في ذلك واضح . فان الاديان ليست مبتكرات صرقة تخرج من عقول الذين يأتون بها فتكون كالصور السحرية التي يقال بانها تظهر فجأة ولا يكون لها أصل ترجع اليه في عالم الوجود الخارجي . ليست الاديان من هذا في شيء . أنها دعوة قدسية تؤيد مبادئ تكون قد وجدت بالفعل وتشبع بها جو الفكر الانساني . لهذا تختلف في الصورة وتظل ثابتة في الجوهر

نعود الى هبوط الاسباط مصر وخروج يوسف الصديق من بينهم زعيماً سياسياً كبيراً وقائداً اجتماعياً انصرف الى الدنيا تحت لباس النبوات التي أخضع بها ملك الهكسوس الذي ظهر هو في زمانه ، واستطاع بذلك أن يطيل حرب الاستقلال المصرية في ذلك الحين ، وكانت قد قامت سجالات بين ملوك الهكسوس الذين بسطوا سلطانهم على شمال مصر من عنق الدلتا الى البحر الابيض المتوسط وبين أمراء مصر في صعيدها وكانوا تابعين لغزاتهم بالانثوة والجزية أكثر من ثمانين عاماً طوالاً . بل استطاع بذلك أن يخدم عشيرته من أبناء ابراهيم بمنزلهم أرض « جاهان » الخصيبة في مصر ما بين بلدة « بليس » الحالية ومدينة « الاسماعيلية » الحديثة حتى تكاثروا فيها وامتد سلطانهم واعتز جانبهم . وهو في كل هذا خارج على تعاليم ابراهيم جدهم الاكبر الذي أنزلهم الارض التي وعدوا بها أرض كنعان وسدوم ، وهو في كل هذا قد تحرر من تقاليد عشيرته التي كانت تنطوي على الانصراف الى الله دون غيره من زخارف هذه الدنيا فلك وحكم وتحكم وأوصى بوصايا كلها لخير أهل الدنيا دون غيرهم من أهل الآخرة وهو أن استخفى في كل ذلك وراء وصايا ابراهيم إلا أن كل أعماله كانت على عكس

الروح التي اراد ابراهيم أن يثبثها في عشيرته ، وعلى الضد من الخطة التي سار عليها في حياته . بل لماذا نذهب الى ابراهيم ؟ فان يعقوب نفسه (اسرائيل) كان من أكبر المحافظين على تقاليد ابراهيم التي كسرها يوسف وبدوها في خلال حياته تبديداً . فانه أخرج قبيلة العبرانيين من جماعة جل همها الانصراف الى الله وتوحيده ، الى جماعة عالمية مستعمرة من طريق الاحتفاظ ، بالسلام الاجتماعي ، بعد ان حانت له فرصة الزعامة في أرض الفراغة . ولا جرم أن في هذا من حرية الفكر - ومعناها التحرر من التقاليد الموضوعة - أثراً كبيراً وأنه كان في كل أدواره متمشياً مع الحاجات الأولية التي تشعر الجماعات بضرورتها لها دون مجابهة الافكار الخيالية التي انطوت على كثير من الدعاوى التي قامت عليها حركة العبرانيين (١)

وكذلك تجد الحال اذا انتقلت ، الى موسى ، فانه أخرج العبرانيين من شعب مستعمر أساس استعماره السلام الى شعب فاتح بقوة الساعد والسلاح . فان خروجه من أرض مصر لم يكن إلا ثورة قادها موسى خير قيادة ضد الملك الفرعوني بعد أن طرد الهكسوس من مصر ، وبعد أن مات يوسف الصديق - لاندري - تقاركم من السنين - ولم يخلفه سياسي آخر يستطيع أن يحتفظ بالبناء الذي شيده يوسف للملكه الهكسوس الذين لا يبعد أن يكون لهم بالعبرانيين صلة السلالة ، وان كانت الحقيقة أن بين الهكسوس والعبرانيين صلة الموطن . فهم على الأقل أسويون من غرب آسيا كذلك اعتقد أن سنى التيه في سيناء لم تكن إلا حيلة لجأ اليها موسى ليدير الشعب العبراني على أن يكون شعباً حرياً يتحمل المشاق والمتاعب . بل أراد بذلك ان يخرج من أولاد العبرانيين سلالة صحراوية جديدة فعكف على سنن أهل البداوة ليفوز منهم بجيل حربي جديد . ولا يعوزنا الدليل على ذلك فان تاريخ موسى كما يرويه ربانيو ، التلمود ، مقعم بالأدلة التي تؤيد مذهبنا هذا .

فغير خاف مثلاً أن موسى بعد أن قتل المصري الذي كان يناوىء العبراني ، هرب من أرض مصر بحتاراً شبه جزيرة سيناء ، حيث قطعها من القرب الى الشرق ، ثم هبط أرض مدين ولبث بها سنين عديدة ، تزوج في أثنائها من بنت « شعيب » وظل طوال هذه السنين يرعى الاغنام ويتنقل بها من مكان الى مكان في تلك البراري

(١) راجع مقالنا ، مطالعات في سفر التكوين ، الذي نشر في العصور

المتسعة المترامية الأطراف . هذه حقيقة أولى لا يجب أن تغيب عن أذهاننا .

ثم يجب أن تذكر بجانب هذا أن شعب العبرانيين ، منذ هبوط الاسباط أرض مصر ، قد عاش في كنف يوسف وفي أرض « جاهاان » الخصبة عيشة كلها لذّة وترف وسعادة وانصراف عن العادات العمرانية الأولى التي عكف عليها أجدادهم . ثم لنصف الى ذلك أنهم أقاموا في مصر أربعة أجيال على الأقل . ثلاثة في حياة يوسف ، وجيل بعد موته حتى ظهور موسى . هذا على أعدل تقدير . ولا جرم أن أربعة أجيال يعيشها شعب في دعة وحرية وأرض خصبة تؤتيه أكلها من غير نصب ، وتعطيه مرعى لمواشيه من غير تعب ، كافية لأن تقتل في نفس شعب جوال كالعبرانيين ، فضيلة القدرة على الجهاد منذ أول أيام تاريخه ، وكل نزعة الى حب الحرب والجلاد . إذن فقد دخل العبرانيون أرض مصر قبيلة صحراوية جواله فيها الكثير من صفات أهل البداوة ، وخرجوا منها شعباً ناعماً هادئاً فيه كل صفات أهل الاودية الزراعية . وهذه حقيقة ثانية لا يجب أيضاً أن تغيب عن أذهاننا .

ماذا نستنتج من هاتين الحقيقتين ؟ نستنتج منهما أن موسى كان عالماً بجغرافية سيناء وأرض مدين معرفة صحيحة ، وإن العبرانيين قل من كان يعرف منهم شيئاً عن جغرافية هذه البقاع ، ان لم يكونوا جميعاً على جهل بها . لهذا استطاع موسى أن يغيبهم في جوف التيه سنين عديدة ، حتى يقف الجبل الناعم الوادع الذي خرج به من أرض مصر ، والذي أثرت فيه طبيعة الوادى الزراعى اخلاقاً واستعمارياً ، ويخرج من جيله جيلاً فيه كل صفات أهل البداوة وشجاعة سكان الاراضى الجبلية . يدلك على هذا الثورات الكثيرة التي شنها العبرانيون ضد موسى وطلبهم منه أن يعود بهم الى مصر ليعيشوا فيها عبيداً لفرعون علياً . أن يكونوا شعب الله المختار ، وعلى أن يتلقوا توراۃ الله من كلم الله . بل إنهم رجوه مراراً عديدة ولم يستكفوا أن يظلموا على رجمه عاكفين ، حتى بعد أن يهبط آل اسرائيل في غمامة ويظلل موسى منعماً لا ذاهم عنه ، فلا يتورعون ، عن أن يرجعوا موسى ومن فوقه الغمامة والله فيها !!! كل هذا حبا في عبودية فرعون وزهدا في حرية موسى .

كل هذا ولا يرجع موسى عن أن يتركهم في التيه يموت منهم العاجزون ويبقى الصالحون . فكرة انتخاية طبيعية طبقها موسى على شعب اسرائيل جهد ما يستطيع مؤمن بنتائجها في إخراج أجيال الحرب والجلاد . وعلى نفس الطريقة جرى أهل اسباطة في عصور المدينة اليونانية .

من وراء أى ستار يخفى موسى مقاصده ؟ يخفيها وراء ستار التوراة . إن الله يريد أن يعلم شعبه المختار أسرار التوراة . وأين ؟ فى التيه ! ولا خروج لهم من هذا التيه الموسوى إلا بأن يتعلموا التوراة ويستوعبوها . ومن ذا الذى يحكم بانهم استوعبوها ؟ موسى وحده . ولم من السنين تكفى لاستيعابهم التوراة ؟ أربعون سنة فقط ! وهى حقبة من الزمن كافية لأن يغربل فيها شعب اسرائيل وتنسفه مناسف الزمان القاسية ، فلا يبقى منه إلا الشعب الجبلى المستولد فى برية سيناء وحده . الشعب البدوى الصابر المصابر الذى يتحمل مكاره الجوع والعطش والذى يشعر بأنه جدير بأن يدافع عن نفسه بيده ، ويدود عن حياضه بسلاحه

ولا خفاء فى أن تاريخ موسى يدل على أنه كان جباراً قوى الاصلاح . وأى زعيم يصبر على تحنث شعب اسرائيل وتأثته إلا موسى ؟ ومن ذا الذى يصبر على ميوعة تلك الفطرة التى يصفها سفر الخروج أحسن وصف إلا موسى ؟

ولقد نفذ موسى سياسته أحسن تنفيذ ، وأخرجها من حيز الفكر الى حيز الوجود أحسن إخراج . فأخذ شعب اسرائيل من مصر عبداً ، وتركهم بعد فتحهم أرض الميعاد شعباً حرياً قوياً ينتظر امبراطورية « داود » ليتسلط بها على الشرق حقبة من الزمان .

كل هذا يخفى وراء الايمان واليقين بصحة الرسالة التى اعتقد موسى أنه واجب عليه فى الحياة أن يؤديها لأهل جيله ، وللأجيال الآتية من بعده . وان فى جماع هذا لا تراً من حرية الفكر ، احتمل فى سبيله موسى من المكاره ما لم يحتمل حر من أحرار الفكر جزء على ألف منه خلال كل الأجيال التى وصل الينا تاريخها .

على ان فى هذه الصورة لاقتضابا لا يحتمل المقام أوسع منه . ولورجعت الى أسفار التوراة ، أو التلود إذن لرأيت كيف أهين موسى وكيف استهزئ به وكيف نبذ ورجم بالطوب والحجارة ، وكيف تدلل عليه شعب اسرائيل تدلل النساء والخشيين . ولكنك ترى بجانب ذلك كيف صبر موسى وكيف صابر ، وكيف انتصر على أهله ، فاخرجهم من ظلمات الجهل والعبودية ، الى فى الحرية والعلم . ترى كيف أشربهم روح التوراة بوصاياها المجيدة ، وكيف هيا منهم شعباً فاتحاً . حتى أنك لو نظرت فى تاريخ الجلال بين موسى وبين شعبه ، لتساءلت كيف يختار الله هذا الشعب ليكون شعبه ، وكيف يمكن أن يخرج من هذا الخليط المؤنث شعباً لا يبقى فى الوجود من شىء إلا هو والله ، كما ينص التلود ؟

غير أنه لم يكن لموسى من بد أن يخفى مقاصده وراء ثوب القداسة ، وإن يستدر التوراة من السماء ، وإن يكلم الله . فشعب اسرائيل ذو ميول دينية من ناحية ، وكثرة مطالبه ورخاوته وتأثته من جهة أخرى ، لم يكن لها من علاج الا ان يكلم الله موسى ، وإن يكلم موسى الله ، ليرضى شعب اسرائيل نزعته الدينية ، ويشعر كما يشعر النساء بأنه في كنف العزيز الحميد ، يستظل بحمايته في سيناء ، فكيف عن إيذاء موسى

على هذا تجد الحال إذا أنت انتقلت من اليهودية الى النصرانية . فإن روح اليهودية قد صبت على ما اعتقد في مزامير داود . روح تجلت في خوف الله خوفا شديداً واسترضاء لجبروته العظيم . مضى داود في مزاميره يتقرب من الله مصطبغاً بهذه الصبغة . فلما ظهر عيسى على أنه المسيح الذى ينتظره اليهود حتى اليوم تحت ظل البراق ، وبشر بنظرية جديدة صب فيها روح النصرانية ، وقال بأن ملكوت السماوات يفتحه الحب لا الخوف ، كان بهذا صاحب مذهب جديد يحتاج الى كثير من حرية الفكر والى كثير من الشجاعة على ابدائه .

وكذلك إذا أنت رجعت الى الاسلام ، رأيت فيه مذهبا وسطا بين مذهب اليهودية والنصرانية ، وإن روحه استمدت من الخوف الشديد والحب الصامت الرهيب . وعندى ان الآية المعروفة فى سورة الرعد : : ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب ، فيها تعبير صادق عن روح الاسلام . فهو مذهب منتخب من تقاليد العبرانيين منذ أبعد أزمانهم اخذ أبين صورتين فيها صورة المزامير وصورة الانجيل ، وأخرج ديناً جديداً ، كان بحق دين الله ، الذى استطاع أن يخضع العالم المتمددين فى ثمانين عاماً قصاراً من عمر الدنيا .

ولا جرم أن فى كل هذا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ان استخفت وراء مظاهر ما فوق العقل ، فإن روح العصر كانت سبباً فى ذلك . وإن للفكر تقاليد ثابتة تحدث جواً خاصاً ، لا يعيش فى الأفكار والمذاهب إلا ما انبج فى ذلك الجو .

وإن مجال البحث فى هذا لواسع كبير ، تمنى لو تباح لنا الفرص مرة بعد أخرى لنزاول جوانب منه ، تمشياً مع روح زماننا واستجابة لنداء الحرية الفكرية التى أصبحت طابع العصر الحديث على الاساليب العلمية التى افعمت جونا فى هذا الزمان .